جـــبل

قد تُنكر العينُ ضَوْءَ الشَّمسِ من رَمَدٍ وَيُنْكِـرُ الفَـمُ طَعْـمَ الماءِ من سَـــقَم

أبرز الرموز الواردة فى فصل « جبل » ومعانيها :

م	الرمز	معناه
١	جبل	موسى عليه السلام
٢	ناظر الوقف	فرعون
٣	هدى هانم	امرأة فرعون
٤	زقلط	هامان
٥	البلقيطى	شعيب عليه السلام
٦	شفيقة	ابنة شعيب زوجة موسى
٧	آل حمدان	بنو إسرائيل فى مصر قبل موسى عليه السلام
٨	آل جبل	بنو إسرائيل فى مصر فى عهد موسى عليه السلام
٩	صخرة هند	المكان الذى ينزل فيه الوحى على موسى
١٠	دعبس	الإسرائيلى الذى استغاث بموسى مرتين

obeikandl.com

جَبَل
توطئَة

فى مطلع هذا الفصل - جبل - يتحدث مؤلف رواية « أولاد حارتنا » الأُستاذ نجيب محفوظ بأسلوب رمزى شديد الغموض ، يتحدث عن وقائع الاضطهاد والتعذيب ، التى كان يتعرض لها آل حمدان - بنو إسرائيل فى مصر - من فرعون وآل فرعون ، الأمر الذى دعا آل حمدان إلى الإصرار على اللقاء بناظر الوقف - فرعون - ليطالبوه بإعطائهم حقوقهم وكف الظلم عنهم .

ويلتقى بهم « الناظر » على كُره منه ، ولما انصرف آل حمدان عن اللِّقاء الذى لم يحقق لهم أدنى كسب ، أخذ الناظر يفكر فى أمرهم ويبحث عن وسيلة لتأديبهم ؛ لأنهم صاروا قوة كدولة داخل الدولة ، وتتدخل هدى هانم (امرأة فرعون) وتشير على زوجها أن يستعين بزقلط (هامان) فهو قادر على التنكيل بهم ، وعلى تأديبهم ، وقالت لزوجها :

إن هامان أو زقلط يشاركهم فى ريع الوقف دون أن يؤدى عملاً ، وإذا سُلِّط على آل حمدان فهو قادر بمعونة الفتوات على أن يبطش بهم .

ولما كُلِّف زقلط بهذه المهمة قاد الفتوات بنفسه ، وهاجم حىّ آل حمدان ، فأشبعوهم ضرباً بالنبابيت ، وحطموا محالهم وحبسوهم فى بيوتهم ، وأصدر زقلط - هامان - أمراً لفتواته بأن يقتلوا كل إسرائيلى إذا خرج من بيته .

وبينما يجلس زقلط فى بيت الناظر - فرعون - فى مجلس يضم الثلاثة : الناظر ، وهدى هانم زوجته ، وزقلط ، إذا بجبل - موسى - يدخل

عليهم ليقدم للناظر حساب الوقف اليومى ، وكان الناظر وزقلط وهدى هانم يتحدثون عن المصيبة التى حلَّتْ بآل حمدان - قوم جبل - أو قوم موسى . فظل جبل صامتاً لا يتحدث إلا إذا سُئِل .

ثم يأمر الناظر « جبل » بالانصراف ، فخرج ووقع فريسة لخاطرين هجما عليه :

أيظل على ولاء للناظر وزوجه هدى هانم ، وليًّا نعمته ، وبخاصة هدى هانم التى كانت قد أنقذت « جبل » بإخراجه - وهو طفل - من حفرة مملوءة بالماء والطين ، ثم ربته فى بيتها كما يُرَبَّى أبناء الملوك ، أيظل على هذا الولاء وفاء للمعروف ؟ ويترك قومه آل حمدان الذين ينتمى هو إليهم أباً وأُمَّاً .

أم ينحاز إلى قومه وهم تحت وطأة العذاب الشديد ؟ ومِنْ مَنْ ؟ من البيت الذى ينتمى إليه هو ، ويقوم بإدارة وقفه ؟ ثم وكيف ينحاز إلى قومه ، والعلاقة بينه وبينهم جافة ؟ وهو متهم - عندهم - بالسكوت عن نصرة قومه ، وصلته ببيت الناظر تمكنه من استرداد حقوقهم وكف الأذى عنهم ؟

ويعود جبل إلى بيت الناظر مرة أُخرى ، ويجد الحديث عما حل بقومه مادة شهية فى أفواه الناظر وزقلط وهدى هانم ، فلا يملك إلا أن يُظهر ولاءه لقومه آل حمدان ، ويحتد النقاش بينه وبين الناظر وزقلط .

أما هدى هانم فتعلن خيبة رجائها فى ابنها جبل ؟! ، لأنها ولية نعمته وقد أنقذته طفلاً من هلاك محقق .

خرج جبل من هذا المجلس وقد أعلن - بكل قوة وصراحة - انحيازه إلى قومه » (١) .

اتخذ مؤلف الرواية من هذا المطلع الذى لخصناه مدخلاً لسرد الوقائع التى

---

(١) أولاد الحارة ص ١١٣ - ١٢٧ ملخصا .

صاحبت « جبل » من نشأته حتى مماته . فمن هو جبل هذا ؟ أهو رجل من أبناء حارة مصرية ، أم ماذا يكون ؟

❊ ❊

● جبل هو موسى عليه السلام :

إن « جبل » فى رواية « أولاد حارتنا » هو موسى رسول الله إلى بنى إسرائيل ، بل هو أكبر رُسُلهم وأشهرهم . وهذه هى الأدلة :

الدليل الأول - عصر اضطهاد بنى إسرائيل فى مصر :

لكى لا نكرر ما قلناه ، نحيل القارئ إلى الملخص الذى لخصناه قريباً يجد مؤلف الرواية يبدأ رسم صورة موسى - وإن سماه جبلاً - بعرض مركَّز للاضطهادات التى مُنِى بها بنو إسرائيل فى مصر فى عهد الفراعنة ، وكان بنو إسرائيل قد وفدوا إلى مصر حين كان يوسف عليه السلام وزيراً كامل التصرف فى شئونها المالية والتموينية ، ثم استقدم أباه وأُمه وإخوته كما جاء فى القرآن الأمين ، حيث حكى قول يوسف لإخوته :

﴿ اذْهَبُوا بِقَمِيصِى هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيراً ، وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ (١) .

ثم نفذوا ما أمرهم به ، وجاءوا جميعهم إلى مصر ، هذا ما قاله القرآن الأمين :

﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ ، وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللهُ آمِنِينَ ❊ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ ، وَخَرُّوا لَهُ سُجَّداً . . . ﴾ (٢) .

ثم تكاثروا بالإنجاب على مرِّ السنين ، وصاروا قوة يُعْمل حسابها ، فخشى فرعون من تكاثرهم ، ووضع خطة تقوم على قتل كل مولود ذكر يُوْلد لهم ،

---

(١) يوسف : ٩٣ (٢) يوسف : ٩٩ - ١٠٠

وسخروا رجالهم وشبابهم للعمل فى الأعمال الشاقة ، وأنزلوا بهم أشد ألوان العذاب ، كما جاء فى القرآن الأمين :

﴿ وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ، وَفِى ذَلِكُمْ بَلاءٌ مِّن رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾ (١) .

فحديث مؤلف رواية « أولاد حارتنا » عن اضطهاد بنى إسرائيل ، أو آل حمدان كما ترمز إليهم الرواية ، هو دليلنا الأول على أن « جبل » هو موسى عليه السلام .

* *

● الدليل الثانى - الالتقاط من الحفرة :

وُلِدَ موسى عليه السلام ، وسط موجات من التعذيب والتنكيل تعرض لها بنو إسرائيل فى مصر ، وكانت أُمه ، وهى حامل به ، ترى أن مصيره هو القتل ، كسائر أبناء بنى إسرائيل الآخرين ، وسيطر عليها الخوف ، فأوحى إليها ربها بأن لا تخاف ولا تحزن ، وما عليها إذا وضعته إلا أن ترضعه وتضعه فى صندوق محكم ، وتلقيه فى اليم - فى نهر النيل - وأن رعاية الله ستتولاه فلن يصاب بسوء ، وإذا بالقدر الحكيم يهيئ له الجو فيلتقطه آل فرعون ، ثم يهمون بقتله ، ولكن العناية الإلَهية ترقق قلب امرأة فرعون ، وكانت لا تلد ، وتنهى عن قتله ، فيتربى موسى فى بيت فرعون ، ويسخر الله البيت ومن فيه وما فيه لخدمه موسى الذى سيكون على يديه هلاك فرعون وآله ، هذا ما قصه علينا الكتاب العزيز :

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ ، فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى الْيَمِّ وَلاَ تَخَافِى وَلاَ تَحْزَنِى ، إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ ، وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ * فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوّاً وَحَزَناً * إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا

(١) البقرة : ٤٩

كَانُوا خَاطِئِينَ * وَقَالَتِ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لاَ تَقْتُلُوهُ ؛ عَسَى أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً ، وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ ﴾ (١) .

وهكذا خاب فرعون ونجا موسى بتدبير الله العزيز الحكيم ، خاب فرعون ، لأنه قتل أُلوف الأطفال بلا ذنب ، وجميعهم لو تُركوا أحياء ما ضروه ولا لحقه منهم أذىً ؟!

وأبقى طفلاً واحداً يراه أمام عينيه فى بيته صباح مساء ، يرفل فى حلل النعيم ، وعلى يد هذا الطفل - لو درى فرعون وجنوده - هلاك فرعون وهلاك ملكه ، فيالسخرية القدر من الطغاة وأعوانهم .

* *

● **الواقعة فى الرواية** :

المؤلف - الأُستاذ نجيب محفوظ - كان ، وهو يخط هذه الرواية - بين نزعتين عارمتين :

إحداهما : حرصه الشديد على رسم صورة لكبار أولاد الحارة مستمدة من واقع حياتهم .

والثانية : حرصه الأشد على إخفاء حقيقة « الشخص » الذى يرسم له تلك الصورة ، ليظل ذلك الشخص كائناً وهمياً - أُسطورة - من صنع الخيال .

ولذلك فإنه يعمد إلى بلورة الوقائع بتبديل فى قسماتها الواقعية ، حتى تبدو بينها وبين صاحبها الحقيقى منافرة وتدافع . هذا السلوك سلكه المؤلف فى كل شخصية من الشخصيات الواقعية الذين لهم تاريخ أو سيرة محفوظة خارج أولاد حارة الأُستاذ « محفوظ » ، فتعال انظر كيف صوَّر واقعة إلقاء موسى فى اليم ، والتقاط آل فرعون له ، يقول المؤلف يصف حال جبل لما تَؤَزَّع قلبُهُ بين ولاءين لقومه أو لبيت ناظر الوقف كما أشرنا من قبل :

---

(١) القصص : ٧ - ٩

« وودَّ أنْ يدفع عنهم - أى آل حمدان قومه - لولا إشفاقه من إغضاب البيت - أى بيت فرعون - الذى آواه وربَّاه وتبناه ، ماذا كان سيكون لو لم يدركه عطف هدى هانم - أى امرأة فرعون - منذ عشرين عاماً رأت الهانم طفلاً يستحم فى حفرة مملوءة بمياه الأمطار مضت تتسلى بمشاهدته ، فمال قلبها الذى حرمه العقم من نعمة الأُمومة إليه ، أرسلت مَنْ حمله إليها ، وهو يبكى خائفاً » (١) .

لم يأخذ من الواقعة إلا الحفرة رامزاً بها إلى « اليم » ، ثم دخول موسى بيت فرعون ، وأدار ظهره للباقى ، وهذا من الفر بعد الكر ، أو الإحجام بعد الإقدام كما ترى ؟

ثم عاد المؤلف وذكر هذه الواقعة مرة أُخرى ، فقال فى وصف حالة نفسية لـ « جبل » :

« وأصوات تهتف من أعماق نفسه : لن تطيب الحياة على حساب الغير ، وآل حمدان - يعنى قوم جبل - أهله ، فيهم ولدتْ أُمه وأبوه ، وفى مقابرهم دُفِنَا ، وهم مظلومون ، وما أقبح الظلم ، اغتصبت أموالهم ، ولكن مَنْ الظالم ؟ إنه وَلِىُّ نعمته الرجل الذى انتشلته زوجته من الطين ، فرفعته إلى مصاف آل البيت الكبير » (٢) .

* *

الدليل الثالث - المصارعة بين الإسرائيلى والمصرى :

حكى القرآن الأمين شجاراً وقع بين رجل إسرائيلى وبين رجلين من أهل مصر ، فاستغاث الإسرائيلى بموسى فقتل موسى المصرى قَتْلاً خطأ غير متعمد ، ثم استغاث به الإسرائيلى فى المرة الثانية ، فهمَّ موسى بضرب المصرى ، لكنَّ

---

(١) أولاد حارتنا ص ١٣١ (٢) أولاد حارتنا ص ١٣٦

المصرى ذكَّر موسى بقتل الرجل الأول فأعرض عنه موسى ، وكان ذلك قبل بعثته رسولاً إلى فرعون وملئه ، جاء ذلك فى قوله تعالى :

﴿ وَدَخَلَ المَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا ، فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلانِ هَذَا مِن شِيعَتِه ، وَهَذَا مِن عَدُوِّهِ ، فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِى مِنْ شِيعَتِه عَلَى الَّذِى مِنْ عَدُوِّهِ ، فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ ، قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ * قَالَ رَبِّى إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَاغْفِرْ لِى ، فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ (١) .

* *

● **الواقعة فى الرواية** :

قال المؤلف فى رصد هذه الواقعة :

« فرأى - أى جبل - رجلاً يركض فى رعب ، وآخر وراءه ، يطارده ، ويوشك أن يلحق به ، فأمعن النظر ، فعرف فى الهارب دعبس - الرجل الإسرائيلى - وفى المطارد قدرة - الرجل المصرى - . . وفى الحال عرف حقيقة الموقف . . وما لبث قدرة أن أدرك دعبس ، فقبض بيده على منكبه . . وصاح قدرة . . كيف تجرؤ على مغادرة جحرك يا ابن الأفعى ؟

لن تعود سالماً . . وحانت من دعبس نظرة نحو موقف جبل . . فناداه : أعثنى يا جبل ، أغثنى فأنت منَّا قبل أن تكون منهم . . ووجد جبل نفسه يتقدم منهما . . وهو يقول بهدوء :

ترفق بالرجل يا معلم قدرة . قال قدرة : إنى أعرف ما ينبغى أن أفعله .

جبل : لعل أمراً ضرورياً دفعه إلى مغادرة بيته » .

قدرة : ما دفعه إلا قضاؤه المحتوم » (٢) .

---

(١) القصص : ١٥ - ١٦ (٢) أولاد حارتنا ص ١٣٦ - ١٣٧

ويمضى الكاتب فى سياق كلامه الخيالى حتى يصل إلى اشتداد الموقف بين موسى وقدرة ، ثم قتْل موسى لقدرة .

وأياً كان أسلوب الكاتب فى تصوير هذه الواقعة ، فإن ذِكرها فى الرواية دليل على أن « جبل » فى الرواية هو : موسى عليه السلام .

❊ ❊

الدليل الرابع - تجدد الشجار مرة أُخرى :

يحكى لنا القرآن الأمين واقعة الشجار الثانية عقب الأُولى فيقول :

﴿ فَأَصْبَحَ فِى الْمَدِينَةِ خَائِفاً يَتَرَقَّبُ ، فَإِذَا الَّذِى اسْتَنْصَرَهُ بِالأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ ، قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ * فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا ، قَالَ : يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْساً بِالْأَمْسِ ، إِنْ تُرِيدُ إِلاَّ أَنْ تَكُونَ جَبَّاراً فِى الْأَرْضِ ، وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ ﴾ (١) .

❊ ❊

● **الواقعة فى الرواية :**

عرض مؤلف الرواية : « أولاد حارتنا » هذه الواقعة فى صورة جدَّ مختلفة عما ورد فى الكتاب العزيز . فالقرآن يؤكد أن الشجار فى المرتين كان بين إسرائيلى ومصرى فى المرة الأُولى غير المصرى الذى كان فى المرة الثانية .

وخلاصة الواقعة فى الرواية هى :

أن « دعبس » اتهم إسرائيلياً آخر اسمه « كعبلها » باختلاس حبة بطاطة من « حلة » ، دعبس وأكلها ؟ وتشاجر الرجلان فى وجود جبل الذى انحاز إلى « كعبلها » لأن « دعبس » اتهمه بغير دليل ، وراح جبل يكيل الضربات

---

(١) القصص : ١٨ - ١٩

لدعبس ، فقال دعبس لجبل : أتريد أن تقتلتنى كما قتلت قدرة ؟! [1] ، وكان قول دعبس هذا إعلاناً لأول مرة عن قاتل « قدرة » المصرى .

هذا التزوير لم يلجأ إليه مؤلف الرواية إلا للتمويه على القراء حتى لا يفطنوا إلى أنه يتحدث هنا عن موسى عليه السلام ، وهو من الفر بعد الكر أو الإحجام بعد الإقدام قصداً للتمويه .

ومهما بلغت مهارة المؤلف فى « الروغان والزوغان » فإن ما فيه بادٍ على فيه ؟!

ألا ترى إلى قوله منسوباً إلى دعبس : أتريد أن تقتلنى كما قتلت قدرة » .

قارن هذا القول بعبارة القرآن الحكيم :

﴿ أتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْساً بالأَمْسِ ﴾ حيث سطا المؤلف على العبارة القرآنية مع تبديل يسير : قدرة مكان « نَفْساً » ، ثم حَذْف « بالأمس » ، وهذا كذلك فر بعد كرٍّ ، وإحجام بعد إقدام .

* *

الدليل الخامس - الناصح الأمين :

ويضيف القرآن الأمين إلى واقعتى الشجار الذى حدث بين الإسرائيلى والرجلين المصريين ، واقعة أُخرى ، مؤداها أن رجلاً ناصحاً أميناً ، لما فشا فى المدينة - القاهرة الآن - أن موسى عليه السلام هو قاتل المصرى الأول ، وتآمر آل فرعون على قتل موسى ، جاء الرجل الناصح الأمين ، وأشار عليه بالخروج من المدينة ، بعد أن أعلمه بما يدبره له آل فرعون . وفى ذلك جاء قوله تعالى :

﴿ وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى ، قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْقَوْمَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ ، فَاخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ ﴾ [2] .

---

(١) أولاد الحارة ص ١٥١ ملخصاً . . (٢) القصص : ٢٠

● **الواقعة فى الرواية :**

ذكر مؤلف الرواية هذه الواقعة ملفوفة فى قتام كثيف ، حيث زعم أن الناصح لجبل - أى لموسى - رجل كان يسير مع موسى اسمه « ضلْمة » [1] يقول الكاتب : إن ضلمة هذا دعا موسى ليقيم معه فى شقته للتستر عليه ، ثم دار بينهما الحوار الآتى :

جبل لضلمة : ألا يوجد سبيل إلى الخروج ؟!

ضُلْمة لجبل : أتخاف يا جبل أن يشى بك أحد إلى أعدائنا ؟

جبل : دعبس أحمق .

ضلْمة : نعم ، ولكنه ليس بالنذل .

جبل : أخاف أن تثبت عليكم - أى على آل حمدان - التهمة بسببى .

ضلْمة : سأدلك على طريق الهروب إذا أردته » [2] .

لقد بلغ العبث مدى بعيداً فى « أولاد الحارة » فى سوق هذه الواقعة كما ترى ، ولم يكن فيها من الحق إلا لون شاحب كالح . ومع هذا فإنها دليل فاضح لما يكتمه المؤلف .

* *

● **الدليل السادس - خروج موسى إلى مدين :**

يحدثنا القرآن الأمين أن موسى خرج إلى مدين ، استجابة لنصح الناصح الأمين ، داعياً ربه أن يهديه سواء السبيل ، وينجيه من القوم الظالمين . قال سبحانه :

---

(١) لست أدرى سر هذه التسمية المقبضة ، ما كان فى وسع مؤلف الرواية أن يسميه « نور » ، لأنه أنار بصيرة رسول الله موسى ، أم أن المزاج العام الذى كان يسيطر على المؤلف هو الذى أملى عليه هذه التسمية ضلمة ؟! (٢) « أولاد حارتنا » ص ١٥٢

﴿ وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى ، قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْقَوْمَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ ، فَأَخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ * فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفاً يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ * وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴾ (١) .

* *

● **الواقعة فى الرواية** :

أما مؤلف « أولاد حارتنا » ، فصور الواقعة فى خيال سرابى خادع ، حيث انتهى خروج موسى إلى سوق المقطم ، وجلس على مقعد يراقب الزبائن غادين ورائحين . وبهذا يكون خروج موسى أو جبل بدأ وانتهى إلى نفس المكان الذى خرج منه ، إلا بضع خطوات قد يخطوها إنسان داخل بيته من غرفة إلى غرفة ، وأين سوق المقطم من « مدين » ياهوه ؟! (٢) .

وهذا التمويه والتشويش ليس بنافعه ، فالمراد معلوم ، والمَخفىَّ مكشوف فأين المفر ؟

* *

● **الدليل السابع - سُقْيَا موسى لابنتَى شعيب عليه السلام** :

نُذكِّر القارئ بأن رمز شعيب عليه السلام فى رواية « أولاد حارتنا » هو « البلقيطى » ، وهى تسمية لا معنى لها سوى ما أراده منها الكاتب مثلما ، أراد من « ضلْمة » من قبل ، وشعيب نبى كريم فكان حرياً أن يكون رمزه كريماً كمعناه ، ولكن للناس فيما يعشقون مذاهب ؟!

وسُقْيَا موسى عليه السلام لابنَتَى شعيب عليه السلام قصها علينا القرآن الأمين فى أُسلوب واضح ، جاء فيه :

---

(١) القصص : ٢٠ - ٢٢ (٢) أولاد الحارة ص ١٥٤ ملخصاً .

﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ ، وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَزُودَانِ ، قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لاَ نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ * فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ ، فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾ (١) .

* *

● **الواقعة فى الرواية :**

عمد مؤلف الرواية « أولاد حارتنا » فى أُسلوب أشبه ما يكون ببرنامج إذاعى فكاهى اسمه : لخبط لخابيط ؟ لعبط لعابيط » ؟! (٢) هكذا - والله - تخيلت تشبيه كلام المؤلف - هنا - مع أنه يعرف الصواب كيف يكون فقد جعل البئر التى كان حولها الرِّعاء يسقون أغنامهم ، جعلها « حنفية » أو صنبور مياه ؟!

وجَعَل سقيا موسى أغنام ابنتى شعيب عليه السلام أنه ملأ لهما صفيحتين ؟

وجعل شعيباً أو البلقيطى موجوداً بمكان السقيا ، ولم يذهب موسى إليه بعد أن أرسل إليه إحدى ابنتيه ؟!

وزاد على هذا أن شباباً ظلوا يعاكسون ابنتى شعيب عليه السلام ، فدخل معهم موسى فى معركة « حمشة » وانتصر عليهم ؟!

كما جعل إحدى ابنتى شعيب « تكبس » موسى عدة مرات وترفض مساعدته لهما (٣) .

---

(١) القصص : ٢٢ - ٢٣

(٢) معذرة للقارئ إن كنت قد لخبطت فى العنوان : هل هو شخبط ، أو لعبط أو لخبط ؟

(٣) أولاد الحارة ص ١٥٤

ليقلْ الكاتب ما شاء ، ومهما توارى خلف رموزه « ولخابيطه » ، فإن « جبل » هو موسى عليه السلام .

❊ ❊

● **الدليل الثامن - لقاء موسى وشعيب عليهما السلام :**

لما عادت ابنتا شعيب وأخبرتاه الخبر ، أوفد إحداهما إلى موسى تدعوه إلى زيارة أبيها ، فلبَّى موسى الدعوة ، ثم دار بينهما حديث نقله إلينا القرآن الأمين فى صدق فقال :

﴿ فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ ، قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ، فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ ، قَالَ لاَ تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ (١) .

دلالة الآية الكريمة على أن موسى ظل فى مكانه بعد أن سقى لابنتى شعيب ، وأن شعيباً كان ثاوياً فى بيته لم يغادره ، وأنه أرسل إحدى ابنتيه إلى موسى تدعوه للقياه ، وعندما التقيا طمأن شعيب موسى بنجاته من الظالمين .

❊ ❊

● **الواقعة فى الرواية :**

أمَّا رواية « أولاد حارتنا » ، فقد عمدت إلى تشويه « أحسن القصص » وأدخلت فيه لغواً فارغاً ، وحشوا مُملاً ، إذ صورت - جبل - يخوض معركة مع شبان كانوا يغازلون ابنتى « البلقيطى » ويفاجأ « جبل » وهو مشتبك مع الشبان بشيخ كبير يقول :

« اذهبوا يا شين الرجال » يخاطب الشبان ، ثم مضى المؤلف يقول :

---

(١) القصص : ٢٥

« اتجهت الأبصار نحو رجل كهل قصير ، مُدْمَج الجسم ، برَّاق العينيْن ، يشد جلبابه على وسطه بحزام ، فهتفوا خجلين :

« المعلم البلقيطى » [1] ، ثم يمضى المؤلف فيقول : إن شعيباً قدَّم نفسه لموسى قائلاً : أنا البلقيطى الحاوى » ، وأن موسى قال : حصل لنا الشرف ، كثيرون يعرفونك فى حارتنا » [2] .

أما ترى كيف عبثت رواية أولاد الحارة بالواقعة ، وهى تعلم من هو جبل ، ومن هو البلقيطى فى قاموسها الرمزى ؟ وهى - كذلك - تعلم جلال الموضوع الذى تحاكيه وترويه ، وتتخذ منه مادة للإضحاك ، بل والقهقهة حتى الاستلقاء على الظهر ؟!

إن لقيا جبل - أى موسى - بـ « البلقيطى » - أى شعيب ، دليل تلو دليل على تعرية « خبايا أولاد الحارة » ، وكشف اللثام عن جبل ، ليصبح موسى ، وعن البلقيطى ليظهر شعيب .

* *

● الدليل التاسع - تزويج موسى وعمله لدى شعيب :

ثم يمضى القرآن الأمين ، فيضيف إلى ما تقدم حلقة جديدة من سيرة موسى عليه السلام ، والعلاقات التى توطَّدتْ بينه وبين شعيب ، فيقول :

﴿ قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ ، إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ * قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ ، عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ ، فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْراً فَمِنْ عِنْدِكَ ، وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ ، سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللهُ مِنَ الصَّالِحِينَ * قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ ، وَاللهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴾ [3] .

---

(١) « أولاد حارتنا » ص ١٥٥ (٢) « أولاد حارتنا » ص ١٥٦

(٣) القصص : ٢٦ - ٢٨

● **الواقعة فى الرواية** :

عرضت رواية « أولاد حارتنا » هذه الواقعة فى ست عشرة صفحة ، حشتها بلغو خيالى أساءت فيه إلى موسى وشعيب معاً ، وهى تعلم أنها تتحدث عن رسولين كريمين ، وكان مما جاء فيها :

إن - جبل - أو موسى فُتِن بشفيقة ابنة شعيب ، تطربه رؤيتها ، ويسعده حديثها ؟!

إنه - وشعيب - كانا يدخنان « الجوزة » معاً . . ؟!

إن « جبل » بعد أن تزوج من شفيقة ابنة شعيب لم يكن له من عمل أو نشاط سوى أمرين :

الأول : أن تكون شفيقة راضية عنه ؟

الثانى : الفراغ وحب الكسل والخمول ؟

وما أكثر ما قبع جبل فى البيت ، وكلما دعاه البلقيطى للعمل أخلد جبل إلى الأرض ، محتجاً بأن أدهم - آدم - من قبل كان يحب الجلوس فى حديقة البيت الكبير ، والسماع إلى الغناء ؟!

ولما يئس منه شعيب (البلقيطى) شكاه إلى شفيقة زوجته ، فظلت تحضه على العمل حتى استجاب .

ولكن ما العمل الذى زاوله جبل أو موسى لدى شعيب ؟ تقول رواية : « أولاد حارتنا » إنه عَمِلَ حاوياً مثل « نسيبه » البلقيطى ؟ وأنه كان يعرض ألعابه فى السوق ، ويحسن ترويض الثعابين ، والتعامل معها ؟

وفجأة أبصره دِعْبس وهو يعرض ألعابه على الناس ، فتعرفا ودار بينهما حديث غير قصير ، وتبادلا الأخبار [1] .

---

(١) أولاد الحارة ص١٥٩ - ١٧٤ ملخصاً .

وهكذا تظهر الرواية موسى عليه السلام ، وهو من أُولى العزم من الرُّسُل ، تظهره كسولاً خاملاً مثله الأعلى أن يشعر - دائماً - برضا زوجته شفيقة ؟ ثم تسند إليه عملاً من أحقر الأعمال ، كما أسندته إلى « شعيب » من قبل ، وكما أسندت إلى آدم بيع « الخيار » الملوث على عربة كارو ، وثلاثتهم من الرُّسُل والأنبياء الكرام ؟!

وهذا الدليل وإن عددناه واحداً ، فهو فى الواقع دليلان :

- العمل لدى شعيب .
- وتزوجه من ابنته .

ولكنا عددناه دليلاً واحداً على أن « جبل » فى رواية « أولاد الحارة » هو موسى عليه السلام لشدة ارتباط الواقعتين فى طور واحد .

وذلك فى « العقد » الذى أبرماه - شعيب وموسى - فى أول لقاء لهما :

العمل من موسى ، والتزويج من شعيب ، وقبول موسى لشروط العقد ومقتضياته :

﴿ قَالَ ذَلِكَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلاَ عُدْوَانَ عَلَىَّ ، وَاللهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴾ .

* *

● الدليل العاشر - عودة موسى إلى مصر وتتويجه بالرسالة :

عودة موسى - عليه السلام - حدث ضخم فى حياته ، وتغيُّر فى مجرى التاريخ الدينى النبوى - الذى هو موضوع رواية « أولاد الحارة » - فقد خرج موسى من مصر ، وهو عبد صالح ، وذو فِطرة نقية ، ثم عاد إلى مصر ، وهو رسول موحى إليه ، يحمل أعباء رسالة عظمى ، لم يسبق لها مثيل فى التاريخ الدينى النبوى من قبل .

رسولاً إلى فرعون الطاغية وملئه أجمعين .

ثم رسولاً إلى بنى إسرائيل ليخرجهم من الظلمات إلى النور ، ويذكرهم بأيام الله .

هذه المعانى الجليلة ، قصها علينا القرآن فى مواضع عديدة من سوره المباركات .

ومن أول المواضع فى نظم السيرة النبوية لموسى ، واقعة عودته إلى مصر ، وتتويجه بالرسالة وهو فى الطريق إليها ، هكذا قص علينا القرآن الأمين :

﴿ فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِه آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَاراً ، قَالَ لِأَهْلِه امْكُثُوا إِنِّى آنَسْتُ نَاراً ، لَعَلِّى آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ ، أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ، فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِىَ مِنْ شَاطِئِ الوَادِ الأَيْمَنِ ، فِى الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ ، مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَى إِنِّى أَنَا اللهُ رَبُّ العَالَمِينَ ، وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ، فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِراً وَلَمْ يُعَقِّبْ ، يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلاَ تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الآمِنِينَ ، اسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ ، وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ ، فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِه إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ ﴾ (١) .

هذا ما فوجئ به موسى ، وهو فى الطريق إلى مصر قبل أن يدخلها .

* *

---

(١) القصص : ٢٩ - ٣٢

أتاها : أتى النار ، نودى : ناداه ربه ، جان : حية ، أسلك : أدْخِل ، الجناح : الجنب ، الرهب : الخوف ، أى إذا خفت من رؤية الحية فضع يدك على جنبك يذهب خوفك .

برهانان : آيتان تدلان على أنك رسول من عند الله ، والبرهانان هما : خروج يده من جيبه بيضاء ناصعة ، وانقلاب العصى ثعباناً .

● **الواقعة فى الرواية** :

أما رواية « أولاد حارتنا » فقد صورت العودة والتتويج بالرسالة فى عبارات خرافية ، كأنها فصل من فصول ألف ليلة وليلة ؟!

قال فى العودة إلى مصر :

إن « جبل » ومعه أهله - عاد إلى مصر فى ليل دامس ، وقصدا حمدان شيخ بنى إسرائيل أو آل حمدان كما فى الرواية ، فرحَّب بهما حمدان ، وانتشر نبأ عودة جبل وزوجته فى حى آل حمدان ، فتوافدوا عليه جماعات ووحداناً .

وكان جبل عند عودته يحمل « بقجة » ، وشفيقة تحمل « بقجة » أُخرى ، وأُدخلت شفيقة إلى حجرة الحريم ، وأُدْخِل جبل حجرة واسعة يستقبل المهنئين وجلسوا على الشلت . . ؟! (١) .

● أما تتويج موسى بالرسالة فى رواية أولاد الحارة ، فاسمع إلى جبل وهو يقص نبأ الرسالة :

« مضيت فى تجوالى فى ظلام دامس . . . . وما أدرى إلا وأنا أوشك أن أصطدم بشبح هائل - يعنى الجبلاوى رمز الأُلوهية (الله) - توهمت أول الأمر أنه أحد الفتوات ، ولكنه بدا لى شخصاً « ليس كمثله أحد فى حارتنا ، ولا فى الناس جميعاً ، طويلاً عريضاً كأنه جبل » (٢) .

وإذا بصوت عجيب : « قف يا رجل » ، فتسمرت فى مكانى ، وسألته وجلدى ينضح بالخوف : من ؟ من أنت ؟

---

(١) أولاد الحارة ص ١٧٤ - ١٧٥ ملخصاً ، والبقجة : الصرة .

(٢) ليس كمثله أحد ، هو وصف الله كما جاء فى القرآن : ﴿ ليس كمثله شىء ﴾ فالكاتب هنا يصف الجبلاوى قاصداً منه « الله » لا محالة ؟!

يقول المؤلف : فتوقف جبل عن الحديث وتساءل ضلْمة :

من حارتنا ؟

فرد عليه عتريس : قال : ليس كمثله أحد فى حارتنا ولا فى الناس جميعاً .

ثم عاد جبل ليواصل الحديث ، فقال كما فى الرواية :

« قال لى بصوته العجيب : « أنا جدك الجبلاوى » .

وتلقى الجالسون هذا الكلام بالإنكار والدهشة ، بل والسخرية ، واتهموا - جبل - بأنه « مسطول » ، فظهر الغضب فى وجه جبل ، وقال :

« سمعته بأذنى ، وهو يقول لى : « لا تخف أنا جدك الجبلاوى » ، ثم واصل جبل الحديث :

« وحدَّدت بصرى لأتبين وجهه المرتفع فى الظلام ، فقال لى : لن تستطيع رؤيتى ما دام الظلام ، فقال جبل : لكنك ترانى فى الظلام .

قال الجبلاوى : « إنى أرى فى الظلام قبل أن توجد الحارة » .

قال جبل : فقلت بإعجاب : الحمد لرب السموات على أنَّك ما زلت تتمتع بصحتك ؟ فقال الجبلاوى :

« أنت يا جبل ممن يُركن إليهم ، وآى ذلك أنك هجرت النعيم غضباً لأُسرتك المظلومة ، وما أُسرتك إلا أُسرتى ؟! ، وهم لهم فى وقفى حق يجب أن يأخذوه . . . فسألته : « وكيف السبيل إلى ذلك ؟

فقال : « بالقوة تهزمون البغى ، وتأخذون الحق » [1] .

* *

(١) أولاد حارتنا ص ٧٦ - ١٨٠

● **وقفة مع هذه الفقرات** :

تقيدنا فى النقل بكلام المؤلف ولم نغير فيه حرفاً ، سوى حذف ما لا حاجة إليه ، والفقرات التى نقلناها لا تقف عند حد الدلالة على أن « جبل » فى رواية « أولاد حارتنا » هو « موسى » فحسب ، بل لها دلالتان أُخريان عظيمتان بالنسبة لنا :

فهى تدل دلالة قاطعة على أن الحارة فى « أولاد حارتنا » هى الدنيا بكل من فيها وما فيها ، دليل ذلك قول « الجبلاوى » لـ « جبل » :

« إنى أرى فى الظلام قبل أن توجد الحارة » ؟ فلما كان « الجبلاوى » عند المؤلف هو - والعياذ بالله - (الله) ، فإن الله يرى لا يحجب رؤيته شىء قبل أن تخلق الدنيا .

أما الدلالة الثانية لهذه الفقرات فهى : أن « الجبلاوى » فى خيال مؤلف الرواية هو - قطعاً - والعياذ بالله مر أُخرى - (الله) سبحانه وتعالى عما يقولون عُلُوّاً كبيراً ، ومواطن الأدلة على هذا فى هذه الفقرات هى :

« ليس كمثله أحد فى حارتنا ولا فى النَّاس جميعاً » أليست هذه العبارة مستوحاة من قوله تعالى :

﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَىْءٌ ، وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ (١) .

قول الجبلاوى لجبل كما قال المؤلف :

« لن تستطيع رؤيتى » أليست هذه العبارة مستوحاة من قوله تعالى :

﴿ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ ، قَالَ لَنْ تَرَانِي . . . ﴾ (٢) .

قول الجبلاوى لجبل : « بالقوة تهزمون البغى » أليست هذه العبارة مستوحاة من قوله تعالى :

﴿ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ ، وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا . . . ﴾ (٣) .

---

(١) الشورى : ١١ (٢) الأعراف : ١٤٣ (٣) الأعراف : ١٤٥

أما قول المؤلف على لسان جبل للجبلاوى :

« الحمد لرب السموات على أنك ما زلت تتمتع بصحتك » .

فإنه فى تقديرنا أتى به للإيهام على القارئ ، ووضع غشاوة على بصره أو بصيرته لكيلا يرى الحقيقة ، ومثلها عبارته فى وصف الجبلاوى : « طويلاً عريضاً كأنه جبل » ، هذا كله ، وغيره كثير فى الرواية من باب الفر بعد الكر ، والإحجام بعد الإقدام قصداً للتمويه ، والله أعلم بما فى السرائر .

إن معنى الرموز - هنا - شديد الوضوح ، وبخاصة لمن كان مُلما بقصص الأنبياء ، حافظاً لكتاب الله ، أو كانت موضوعاته حاضرة فى ذهنه وإن لم يكن حافظاً .

« **أسرتك أسرتى** » :

هذه العبارة مما تَقَوَّلها المؤلف على الجبلاوى رمز الأُلوهية (الله) ولها معنى خطير ، هو أن المؤلف يجارى اليهود فى دعاواهم الفارغة :

- أنهم أبناء الله وأحباؤه ؟!
- أنهم شعب الله المختار ؟!

انظر كيف شرد به الخيال ؟ وكم أباح له أسلوبه الرمزى من الأقوال التى تخر لها الجبال هداً ؟

المؤلف يعرف - تماماً - ما جاء فى الذِكْر الحكيم عن الموضوعات التى حرَّف وبدَّل وغيَّر فيها ، وأضاف إليها ما ليس منها ، وبتر عنها ما هو من صميمها ، واسأل نفسك عزيزى القارئ :

لماذا لم يشر إلى وزارة هارون لموسى ؟

ولماذا أدار ظهره للنار التى رآها موسى فى طريق عودته من مدين إلى مصر ؟

ولماذا غضَّ بصره عن الآيتين أو البرهانين اللذين جعلهما الله معجزتين لموسى على فرعون وملئه ؟

obeikandl.com

لقد عودنا الكاتب أنه بالإضافة إلى الرمز الذى يغلِّف فيه معناه تمويهاً وتشويشاً يعتمد فى روايته وسيلتين أُخريين للتمويه والتشويش .

- أن يُضيف إلى الواقعة ما ليس منها ؟
- أو يحذف منها ما هو من أركانها ؟

وما أكثر ورود هاتين الوسيلتين فى رواية « أولاد حارتنا » أو « أولاد حارة الأستاذ نجيب محفوظ » ، وهو الصحيح .

* *

- **الدليل الحادى عشر - إرسال موسى إلى فرعون :**
- رسالة موسى عليه السلام - لها طوران ، أو هى رسالتان :
- رسالة إلى فرعون وملئه ، كما جاء فى القرآن الكريم مخاطباً العرب فى شبه الجزيرة :

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولاً شَاهِداً عَلَيْكُمْ ، كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولاً ﴾ (١) .

وكانت مهمته فى هذه الرسالة مزدوجة :

(أ) شقها الأول دعوة فرعون وملئه إلى التوحيد والطاعة .

(ب) وشقها الثانى استخلاص بنى إسرائيل من الذل والهوان الذى أنزله بهم فرعون وقومه .

ثم رسالة إلى بنى إسرائيل أنفسهم ، يدعوهم - كذلك - إلى توحيد الله وطاعته فيما يأمر به أو ينهى عنه .

---

(١) المزمل : ١٥

obeikandl.com

وقد جاءت الرسالتان على الترتيب المشار إليه ، حيث كُلِّف موسى ، ومعه أخوه هارون ، بدعوة فرعون أولاً بشقيها المذكورين :

أن يدعواه إلى توحيد الله وطاعته ، وأن يطالباه بفك الحصار الذى فرضه على بنى إسرائيل بمصر ، وأذاقهم فيه العذاب صنوفاً وألواناً :

﴿ اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى * فَقُولاَ لَهُ قَوْلاً لَّيِّناً لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى * قَالاَ رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى * قَالَ لاَ تَخَافَا إِنَّنى مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى ﴾ (١) .

﴿ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولاَ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِى إِسْرَائِيلَ ﴾ (٢) .

ووقائع الرسالة الأُولى كان مسرحها مصر ، حيث ذهب موسى وهارون ، وبلَّغا فرعون وقومه ما أرسلا به إليهم .

❊ ❊

● **الرسالة فى الرواية** :

اقتصرت الرواية على رسالة موسى إلى فرعون فحسب ، ولم تقم وزناً لرسالته إلى بنى إسرائيل وهى الأساس ، وحتى فى حديثها عن رسالة موسى أو جبل كما هو معروف فى الرواية ، فإن حديثها وقف عند حد دنيوى بحت ، ولم تتعرض للجانب الإيمانى الروحى لا من قريب ولا من بعيد ؛ لأن قضايا الإيمان لا وجود لها فى الرواية كلها .

❊ ❊

---

(١) طه : ٤٣ - ٤٦ (٢) الشعراء : ١٦ - ١٧

obeikandl.com

● حديث الرواية عن الرسالة الأُولى :

لطول ما ثرثرت به الرواية فى هذا المقام ، نلجأ إلى تلخيصه توخياً للإيجاز : « سأل ناظر الوقف - فرعون - جبلاً عن سبب مجيئه لبيت الناظر ، فقال جبل - موسى - : جئت مطالباً بحقوق آل حمدان فى الوقف وفى الحياة الآمنة ، لكن الناظر اشتاط غضباً وقال لجبل :

أتجرؤ على هذا الحديث ؟ وتدخلت هدى هانم - زوجة فرعون - وقالت :

كان فى نيتى يا جبل أن أدعوك للإقامة أنت وزوجتك معنا ، فقال جبل : إنما قلت لكم رغبة جدنا وجدك الجبلاوى ؟ فما كان من الناظر إلا أن يشتم « جبل » ويتهمه بالجنون ، لكن « جبل » قصَّ عليه فى هدوء مقابلته للجبلاوى والحديث الذى دار بينهما [1] .

فقال الناظر : إنك حاوٍ بجدارة ، ثم انهال عليه لكْماً وضرباً ؟!

أحدث هذا اللقاء قلقاً فى حى آل حمدان - بنى إسرائيل فى مصر - وسرعان ما اجتمعوا حول جبل فذكرهم بوصية الجبلاوى بأن يكونوا أقوياً ، وقال :

لم يكرِّم الجبلاوى حياً من هذه الأحياء كما أكرمكم [2] ، ولو لم يعتبركم أسرته الخاصة ما لاقانى ولا كلمنى ، ولكنه نور السبيل ، ووعد بالتأييد . ووالله لأكافحن ولو كنت وحدى . . واحتل جبل مكان الزعامة فى حيه [3] .

هكذا عرضت رواية « أولاد حارتنا » لقاء موسى بفرعون لقاء خلا تماماً من المهمة الأُولى لموسى فى رسالته لفرعون وملئه حتى تكليف الجبلاوى لموسى

---

(١) يعنى أن موسى عليه السلام أخبره بأنه رسول الله إليه وإلى قومه .

(٢) يستوحى الكاتب هذا المعنى من قوله تعالى : ﴿ يَا بَنِى إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِى الَّتِى أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ ، وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى العَالَمِين ﴾ (البقرة : ٤٧) .

(٣) أولاد الحارة : ص ٨٤ - ١٨٨

كان محصوراً فى أمر دنيوى أرضى مثل أى زعيم سياسى أو شعبى يصارع من أجل متاع الحياة الدنيا ولا شىء غيرها .

إن رسالة موسى لفرعون وقومه كانت قبل كل شىء لإعلان وإعلاء كلمة التوحيد ، وتعريف فرعون بأنه عبد مربوب ، لخالق السموات والأرض ، ولنقرأ معاً هذه الآيات الكريمات ، لنرى كيف جرَّدت رواية أولاد حارة الأُستاذ نجيب محفوظ رسالة موسى إلى فرعون وملئه من أُصولها الإيمانية ، وعبثت بها كما تعبث الرياح العاتية بخشاش الأرض :

﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِين * قَالَ رَبُّ السَّمَوَات وَالأَرْض وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنْتُم مُّوقِنِينَ * قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلاَ تَسْتَمِعُونَ * قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ * قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِى أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ * قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ * قَالَ لَئِن اتَّخَذْتَ إِلهاً غَيْرِى لأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ * قَالَ أَوَ لَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ * قَالَ فَأْتِ بِهِ إِن كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ * وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِىَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ ﴾ (١) .

انظر كيف قرع موسى أذان فرعون وملئه بكلمة التوحيد ، وأخذ يكررها مرات رداً على فرعون ، ثم يلجم فرعون حجراً بإعلان المعجزتين أمام ناظريه وملؤه يشهدون ، ثم ينتصر الحق فى النهاية بإيمان السحرة وخذلانهم لولى نعمتهم فرعون لما ظهر لهم باطله ولاحت لهم آيات الإيمان تملأ العيون والقلوب ، فهتفوا بأعلى أصواتهم : ﴿ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ * رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴾ (٢) .

ثم تحدوا فرعون لما هدَّدهم ، وكانوا من قبل دمية فى يده يحركهم كيف شاء :

---

(١) الشعراء : ٢٣ - ٣٣ (٢) الشعراء : ٤٧ - ٤٨

﴿ قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ ، إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِى عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ، لأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِّنْ خِلاف وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ * قَالُوا لاَ ضَيْرَ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ * إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَن كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (١) .

عُدْ إلى ما فى رواية « أولاد حارتنا » ، وفتش فيها عن هذه المواقف الإيمانية الخالدة ، وزهوق الباطل أمام الحق ، فإن عُدْتَ إليها فلن تجد فيها إلا طمساً لهذه المواقف المتدفقة بحيوية الحق وإشراقات الإيمان ؟!

* *

● **الدليل الثانى عشر - واقعة السحرة :**

واقعة السحرة كانت أول مسمار يُدق فى نعش فرعون وطغيانه ، كان فرعون يرى أن موسى ساحر ، وأن ما جاء به سحر ، وجمع مهرة السحرة فى مملكته ليهزموا سحر موسى :

﴿ وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى * قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى * فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِ . . . ﴾ (٢) .

ولما جاء سحرته قالوا :

﴿ يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِىَ ، وَإِمَّا أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى * قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى * فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَى * قُلْنَا لاَ تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الأَعْلَى * وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ ، وَلاَ يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى ﴾ (٣) .

* *

(١) الشعراء : ٤٩ - ٥١ (٢) طه : ٥٦ - ٥٨ (٣) طه : ٦٥ - ٦٩

● **الواقعة فى الرواية** :

حرص مؤلف الرواية على أن يستفيد منها فى الفصل الذى كتبه عن موسى ، أو جبل على حد رمزه له ، ولكن لم يملك إلا أن يخرجها من سياقها الإيمانى المشرق ، وضع مكانها واقعة خرافية بحتة ، حيث زعم أن الثعابين انتشرت فى البيوت عقب انفضاض اللقاء الذى تم بين موسى وفرعون ، وأن ذعراً أصاب الناس منها ، وبخاصة هدى هانم امرأة فرعون . فاضطر فرعون أو حضرة الناظر حسب رمزه فى الرواية إلى استدعاء موسى لتطهير بيت الناظر من الثعابين ، ثم تطهير بيوت أولاد الحارة ، وأن موسى قام بتطهيرها فِعْلاً ، بيد أن زقلط أو هامان أوحى إلى فرعون بأن موسى هو الذى نشر الثعابين فى الحارة ، فصدق فرعون وشاية زقلط - هامان - وأجمعا على إبادة موسى وقومه ، فنشبت بينهم معارك كان النصر فيها لآل حمدان بزعامة موسى ، ووقع فرعون وهدى هانم فى أسر آل حمدان ، وبدأ فجر جديد لآل حمدان بهزيمة فرعون وملئه (١) .

أليس فى هذا مسخ للواقع ، وتزييف لسيرة عطرة كان انتصار الحق على الباطل هدفها الأول والأخير ؟

لقد أساءت رواية « أولاد حارتنا » إلى التاريخ الدينى النبوى ، وجردت ذلك التاريخ أو أحسن القصص كما سماه القرآن الكريم ، جردته من روحه ، وصيرته أُحدوثة فى أفواه الرعاع وسفلة القوم ، وكان فى وسع مؤلف الرواية أن يختار موضوعاً آخر مادة لخياله وهوايته الفنية ، ولو كان قد فَعَل لرحم نفسه ، وصان فنه من العبث والإسفاف ، ولكن ، وقد كان ما كان ، فليس أمامنا إلا الندم والتوبة ، مع التبرؤ من هذا العمل الآثم ، مهما كانت نتائج التبرؤ منه ، وإلا فالحساب عند الله عسير ثم عسير ، والله يحب عباده التوابين :

---

(١) أولاد الحارة ص ١٨٨ - ٢٠١ ملخصاً .

﴿ إِنَّ اللهَ لاَ يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ ، وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لَمَن يَشَاءُ ، وَمَن يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالاً بَعِيداً ﴾ (١) .

﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً ، إِنَّهُ هُوَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ (٢) .

❊ ❊

● **الدليل الثالث عشر - لمحة من التشريع فى العهد القديم :**

مؤلف رواية « أولاد حارتنا » تتبع التاريخ الدينى النبوى من خلال آيات الذكر الحكيم ، ينقل الواقعة من القرآن إلى ذهنه ، ثم يُعْمل فيها خياله ، ويقذفها على الورق مولوداً مشوه الوجه ، أشل الأعضاء شاحب اللون .

حتى مسائل التشريع اختلس بعضها ، وفى دليلنا الثالث عشر والأخير نضع أمام القُرَّاء الفقرات الآتية ، ولكن لا بد من تمهيد قصير لتيسير الفهم السريع :

● **التمهيد :**

ذكر المؤلف مشاجرة خيالية دارت بين رجلين من آل جبل - وهم بنو إسرائيل فى عهد موسى - المتشاجران هما : دعبس وكعبلها ، والسبب نقود كانت لدعبس (الشقى) (٣) عند كعبلها ، ففقأ دعبس عين كعبلها ووقعت الكارثة وغضب جبل أو موسى لما حدث ، فقال بعض مشاهدى المشاجرة : يرد دعبس النقود لكعبلها ، ثم دار النقاش الآتى :

جبل : فليرد إليه بصره أولاً .

رضوان : ليت فى الإمكان رد البصر .

---

(١) النساء : ١١٦ (٢) الزمر : ٥٣

(٣) دعبس هذا هو الذى تشاجر من قبل مع المصريين ، ومع ضلمة ، لذلك وصفناه بأنه « الشقى » .

جبل : ولكن فى الإمكان أن تؤخذ عين بعين .

دعبس : كنت فاقد العقل من الغضب ، وما قصدت إيذاءه !

جبل : عين بعين ، والبادئ أظلم . . إن الواقف لم يؤثركم بحبه ليعتدى بعضكم على بعض ، فإما حياة تقوم على النظام ، وإما فوضى لن تبقى على أحد ، لذلك أصر على تصفية عينك يا دعبس .

دعبس : لن تمسنى يد بسوء ، ولو قاتلتكم جميعاً .

فانقض عليه جبل كالثور الهائج [١] . . وقال لكعبلها بلهجة آمرة : قُمْ فخذ حقك .

وقام كعبلها ولكنه وقف متردداً . .

جبل : تقدم قبل أن أدفنك حياً ؟ واتجه كعبلها نحو دعبس وبسبابته ضرب عينه اليمنى حتى انفقأت عينه على مرأى من الجميع » [٢] .

لقد استوحى المؤلف هذا السلوك من قوله تعالى :

﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ ، وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ ، وَالأَنفَ بِالأَنفِ ، وَالأُذُنَ بِالأُذُنِ ، وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ ، وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ . . . ﴾ [٣] .

أرأيت كيف يختلس المؤلف من آى الذكر الحكيم ، ثم يحرِّف الكلم عن مواضعه ، وهو يعلم الصواب ؟!

وبعد : من الذى لا يجزم بعد الذى قدمناه أن « جبل » فى رواية « أولاد حارتنا » هو موسى عليه السلام ؟!

* * *

---

(١) هل هذا الوصف يليق بـ « جبل » الذى رمزت به الرواية لموسى عليه السلام . إن هذا ليجعل الحليم حيران ، وآية حيرة ورب الكعبة .

(٢) أولاد حارتنا ص ٢٠٧ - ٢٠٨ (٣) المائدة : ٤٥